7

حقيبة السفر

كلما أتى موسم الإجازات استعد كثير من الناس في مختلف البلدان لرحلة سفرهم إلى بلاد الله، فينتهزها بعضهم فرصة لزيارة الأراضي المطهرة لأداء عمرة مباركة، أو طلبًا للعلم أو سعيًا وراء الرزق أو طلبًا للعلاج والاستشفاء.

أما البعض الآخر فإنه يسافر سياحة، قد تكون إلى مدن أوروبا للهرب من الحرّ، أو للتعرف على هذه البلاد، وقد تكون إلى مدن أخرى في نفس البلد الذي يعيشون فيه، أو في بلدة مسلمة أخرى تمتاز هذه أو تلك بطقسها المعتدل، وجوّها الساحر، ومناظرها الخلابة، وأهلها الطيبين، وهذا ما نشجعه ونحث عليه.

إن الله تعالى حبا بلادنا العربية والإسلامية بأجواء ومعالم سياحية غاية في الروعة والجمال مما جعلها مهوى الأفئدة لكل الناس من مختلف البلدان الأوروبية وغير الأوروبية، ومع ذلك نجد الكثير من أهلنا يهجرونها ويهربون منها إلى بلاد غريبة وغربية سفرًا وسياحة وبحثًا عن التغيير، ومحاولة منهم لإنفاق ما معهم من نقود تؤرقهم وتثقل جيوبهم!

فيذهبون ويرجعون بجيوب خاوية ونفوس ربما تأثرت بفتنة الانفتاح فعلاها الران الذي يتسبب في صدأ القلوب، وقد كان بإمكانهم لو أرادوا إفراغ ما في الجيوب بأرض بلادهم فيصبح المال منهم وإليهم، مع ما يلازم ذلك من تعارف على أصدقاء جدد وإخوة وأصحاب من أهل تلك الديار التي يزورونها.

عندما يستعد المسافر لسفره ذاك يبدأ أولا بحجز تذكرة سفره ودفع ثمنها ليضمن لنفسه كرسيًا ومكانًا في الطائرة أو السفينة، أو يعدّ سيارته ويعمل لها صيانة كاملة ليضمن السلامة في رحلته إن كان سيسافر بالسيارة، وتراه يرتب الأشياء ويشتري ما يحتاجه من أغراض، ولا يترك شيئاً صغيرًا أو كبيرًا سيحتاج إليه في سفره إلا وقد أحصاه وجهزه بصبر واعتناء واهتمام.. ها هو الدواء الذي يتداوى به.. لقد أوصى طبيبه بمضاعفة كميته زيادة في الاحتياط، ولم ينس بالتأكيد دواء الأطفال خوفًا من أن تفاجئهم في سفرهم بعض الأسقام، والملابس يجب أن تكون خفيفة تناسب الحرّ ولا بأس بأخذ أخرى ثقيلة لليل لو تقلبت الأجواء، مع قبعات الشمس والمراهم والكريمات اللازمة لجوّ الرحلة الحار. أما إن كان مسافراً إلى أهله فعليه أخذ الهدايا لهم وما يطلبونه من أشياء أخرى تخصهم.

كل هذا جميل وطيب، وهو من باب الأخذ بالأسباب الذي أمرنا ديننا به، وصار أمراً متعارفاً عليه بيننا أن كل من أراد السفر فعليه القيام بتجهيز حقيبة سفره وإعداد الزاد لرحلته وأخذ ما يكفيه من مال حتى لا يحتاج لأحد. وقد حث الإسلام على ذلك فقال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:197]. وهنا نجد أن الله تعالى أمرنا بالتزود لسفر الدنيا حين قال: ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾ وأعقب ذلك الأمر بإرشادنا إلى استصحاب زاد الآخرة.. التقوى. وكلنا يتعجب ممن يسافر بغير استعداد، فمن سافر دون أخذ ما يحتاجه كانت متعته في رحلته ناقصة.

حين يبادر المسافر لحجز مقعد مؤقت بالطائرة فليتذكر مقعده الدائم في الآخرة، في جنة عرضها السماوات والأرض إن أحسن واستقام، وليسرع بحجزه ودفع قيمته وثمنه الرمزي والذي يستغرق دفع أقساطه منه العمر كله، وهو مهما دفع فلن يوفيه حقه.

وحين يجهز المسافر زاده ويعدّ راحلته ويرتب أغراضه فلينتبه إلى أن هناك زاداً لا يحتمل تجهيزه التأجيل أو التأخير والتسويف، ولا يتناقض معه أخذ الزاد لسفر

الدنيا، عرفه عمر بن عبد العزيز ﷺ فقال: (**إن لكل سفر زاداً لا محالة، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى**).

ولذلك لما سئل الرسول ﷺ أي المؤمنين أكيس قال: "**أكثرهم للموت ذكراً وأحسنهم لما بعده استعدادًا، أولئك الأكياس**" [1] .

في السفر فرصة لتنمية الهوايات والترفيه عن الذات، وفيه تجديد للإيمان بممارسة عبادة التفكر والنظر والاعتبار، وتذكرة بالسفر إلى الدار الآخرة.

وحين ينوي المسافر السفر فعليه إخلاص النية، وصلاة الاستخارة، وتعلم أحكام السفر الفقهية، وكذلك قضاء ديونه إن كان عليه دين، وردّ حقوق العباد إليهم، واختيار رفيق صالح للسفر معه إن أمكن، ولا ينسى أن يصحب معه مصحفاً يقرأ فيه أثناء سفره، وكتابًا نافعاً يؤنسه في رحلته، وعليه أن يكتب وصيته لأهله ويودعهم قائلاً لهم: "**أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه**" [2] . ويسلم على أصدقائه ويطلب منهم الدعاء له.

وعندما يشرع في سفره فليتأدب بآداب السفر وليصلِّ ركعتين قبله.. ففي الحديث: "**ما خلف أحد عند أهله أفضل من ركعتي يركعهما عندهم حين يريد سفراً**" [3] . ويدعو عند خروجه من بيته وعند ركوب وسيلة السفر الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ ، ويكثر من الذكر ويلح في الدعاء، ويتخلق بالأخلاق الكريمة ويراعي عادات البلد الذي يزوره ويحترمها ما لم تخالف شرع الله عز وجل.

(1) صحيح الترغيب وحسنه الألباني .
(2) رواه أحمد .
(3) رواه الطبراني .

8

حقيبة المدرسة

إنها تذكر بالمهمة العظيمة التي من أجلها خلق الإنسان، ومن أراد معرفتها فعليه أن يبدأ بالحقيبة المدرسية التي نسميها إن صحّ لنا حقيبة العلم، وذلك منذ الصغر، فمِن بين طياتها ينبع العلم الذي تذخر بها كتبها.. العلم ذلك الكنز الثمين الذي لا غنى عنه للبشر في دنياهم، بل إنهم يكونون أشبه بالموتى إن لم يكن من نصيبهم.. قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمَر:9]. فهو فرض علينا جميعًا.. قال النبي ﷺ : **"طلب العلم فريضة على كل مسلم"**[1] .

من أراد أن يطلب العلم فعليه أن يبدأ منذ الصغر، وهذا مسئولية الآباء والمربين، لأن العلم في الصغر كما يقولون كالنقش على الحجر، وإن كان هذا لا يمنع مَن فاته قطار التعلم في صغره أن يستمر في الطلب وكما يقال أيضًا: **اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد.**

فالعلم بحر لا يجف معينه ولكنه يحتاج باستمرار لمن يغرف منه ليستمر جريانه ولا ينضب. ومن خلال حقيبة المدرسة نرى طالب العلم وقد علتْ همته، وقويت عزيمته، يسعى إلى معالي الأمور ولا يرضى منها بالقليل.. يسير على الطريق ولا يقف إلا للتزود أو الراحة.. يطلب العون من الله.

فيا طالب العلم أبشر.. فلقد حفظتَ الوصية حين أقدمت على طلبه، وقد أُريد بك خيرًا إذ سلكتَ خير طريق يوصلك إلى الجنة.. قال رسول الله ﷺ: **"من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة "**[2] .. ويا باغي العلم.. أبشر

(1) رواه ابن ماجه .

(2) رواه مسلم .

وقد سعيتَ لأداء الفريضة الواجبة عليك، وأمنتَ بذلك من الجهل والغفلة ومن تضييع وقتك.. بل وسلكتَ طريق الرحمة ففي الحديث : **"الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، وعالمًا أو متعلمًا"** [1].. وخرجت في سبيل الله كما قال النبي ﷺ: **"من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع"**[2] .. لتأخذ بحظك من ميراث النبوة.. **"وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر"**[3] . فأنت تنتمي بلا شك إلى تلك الأمة العظيمة- أمة اقرأ- التي أمرت بالقراءة، والتي دعاها قرآنها من فوق سبع سماوات إلى الأخذ بأسباب العلم وسلوك سبيله، وما ذاك إلا لأهمية تلك المرحلة – مرحلة التعلم والعلم – في حياة أي فرد، وفي بناء أي أمة.. وفي نهضة أي مجتمع.. فالمجتمعات الجاهلة ليس لها أن تسود أو ترتقي، وليس لها مكان بين الأمم.. وأنت على ثغرة من ثغور الإسلام لا بد لك أن تسدّها وتحفظها.. فكم من ثغور ضُيّعت وتُضيّع بسبب جهل أهلها وذويها، لذا فقد أمر الله تعالى بالعلم وكان أول ما نزل من كلامه سبحانه وتعالى ما يدعو إلى العلم، قال عز وجل: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾

[العلق:1].

كم هو عظيم ذلك الدين الذي يطلب من أبنائه أن يتعلموا ويتخصصوا في كل علم نافع للبشرية وللكون من حولنا ليكونوا شامة بين الأمم ويحققوا الاكتفاء الذاتي لأنفسهم حتى لا يمدوا أيديهم إلى غيرهم استجداء، بل تمتد أيديهم هم بالعطاء للعالم من حولهم.. عطاء بلا حدود وفي كل شيء.. عطاءًا روحيًا ونفسيًا.. ماديًا وعمليًا.. عطاء يشمل علوم الدين والدنيا معًا فنحن لا نستغني

(1) رواه الترمذي ، وحسنه السيوطي .
(2) رواه الترمذي .
(3) رواه الترمذي .

عن أحدهما ولا نتعلم إلا لأجلهما معًا، وهذا هو الفرق بيننا وبين غيرنا من الأمم حين نمسك بزمام العلم فنسوقه كما أراد الله له، نفعًا شاملاً للبشرية.. ولا لشيء آخر غير ذلك.. لذا فقد أمرنا ديننا أن نقرأ ونتعلم باسم الله وفي سبيل الله ووفق منهج الله ومن أجل وجه الله تعالى، وبذلك نستحق أن نكون الأمة الوسط التي توازن بين متطلبات الروح وحاجة الجسد، والدنيا والآخرة، والتي تعرف لكل منهما حقه فتؤتيه إياه، بلا إفراط أو تفريط، وبلا غبن أو خسارة.

ففز بعلم تعش حيّا به أبدًا:الناس موتى وأهل العلم أحياء.

ويا طالب العلم..

بقدر الكد تكتسب المعالي

ومن طلب العلا سهر الليالي.

فإذا وفقك الله تعالى ويسر لك طريق العلم فأخلص النية في طلبه لله عز وجل، وحدد هدفك يسهل الوصول إليه، وليكن أول ما تطلبه ما هو فرض عين عليك من تعلم أمور دينك التي بها تعرف الحلال والحرام، والتي تبين لك كيفية القيام بالعبادات التي لا يقوم بها غيرك عنك لتعبد ربك على بصيرة، وكذلك ما تدفع به الشبهات حتى تكون على بينة من دينك ولا يختلط عليك أمرك.. فإذا ما علمت ذلك وبدأت في طلب العلم فالجأ إلى الله واطلب العون منه واجأر إليه داعيًا إياه أن علمني يا الله ما ينفعني وارزقني الإخلاص..ثم زين هذا الإخلاص بتقوى الله لتتحقق معيته وعونه لك، وتكون أهلاً لهذا الرزق العظيم من الفهم وحسن التعلم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة:282] ..

بعد مرحلة الصغر يتضح لطالب العلم ما يستهويه ويبرع فيه من فروع العلوم المختلفة.. وهنا كثيرًا ما نقع في الخطأ حين نجعل من مجموع درجات الطالب في نهاية العام حاكمًا على مستقبل الطالب الدراسي والعملي، فيدخل الجامعة طبقًا لهذه النتيجة، إذ ربما يأتي الطالب بنتيجة باهرة تدخله أعلى الجامعات معدلاً لكن

ميوله تتجه لجامعة أخرى هي دونها منزلة في عُرف الناس من حوله، وهنا يقف الوالدان بل والمجتمع من وراء ذلك الطالب مقللين من شأن ميوله تلك التي قد يتفوق فيها ويكون علمًا في تخصصه ذاك الذي يريده، فيحرم منه بسبب أعراف اجتماعية نشأنا عليها تحتاج إلى تصحيح وتغيير، لذا فإننا نؤكد على أن أمتنا تحتاج إلى التخصصات المختلفة، فكل تخصص له احتياجاته، ونطلب من طلبة العلم أن يتفرغوا له حين طلبه وأن يتفوقوا في تحصيله، ليكونوا أعلامًا في مجال تخصصاتهم ليس في محيط بلادهم فحسب بل على مستوى العالم بأسره، إذ لا يحق لمن أمر بالتسلح بالعلم أن ينفض يديه منه أو يتركه لغيره.. ولا ينبغي لأمة رائدة أن تسير في آخر الركب!

وهنا لا بد من طلب العلم.. ونحن حين نقول العلم لا نحصره في العلوم الشرعية وإن كانت دائمًا هي الأصل.. إنما نقصد به كل علم نافع يفيد طالبه أوينفع الناس والمجتمع من حوله، وإلا لما كان لأمة الإسلام الصدارة والفضل على سائر الأمم حين كانت هي القبلة لطلبة العلوم المختلفة يفدون على بلدانها من كل مكان لطلب العلم والحضارة من عندها، وحين كانت تُترجم كتب علمائنا إلى لغات القوم لتدرس في مدارسهم وكلياتهم، حدث ذلك لما علمنا أن رسالتنا عالمية واسعة ليست محصورة في مكان بعينه ولا تحت عِلم معين.

نحن نحتاج إلى متخصصين في أمور الشريعة لحفظ ذلك الدين وتبليغه والقيام بواجب الدعوة إليه والذي لا يسقط إلى يوم القيامة، ونحتاج لمتخصصين في العلوم الأخرى من طب وفلك وحساب وكيمياء وتاريخ وجغرافيا وهندسة.. نحتاج لمن يتخصص في علوم اللغات المختلفة لنوصل لأصحابها رسالتنا، ونمد حبل التواصل بيننا وبينهم.. نحتاج لخبراء في علوم العصر الحديثة من التكنولوجيا المختلفة.. في الاتصالات والاختراعات وغيرها من سائر العلوم التي هي شعار لقوة الأمم ومبرر لسيادتها.. ولن نكون خير الأمم إن لفّنا الجهل

وأحاطت بنا ظلماته فانتظرنا من غيرنا أن يكشفه عنا أو يعطينا مما عنده.. وكيف يعطينا إذا حرمنا نحن أنفسنا؟!..

فأين أنت من كل هذا يا طالب العلم؟

إن الأمل – بعد الله – معقود عليك، وأمتك تنتظرك وهي بحاجة إليك.

كما أننا بحاجة إلى معلمين ومعلمات من أصحاب الكفاءة والخبرة الذين يؤدون أعمالهم بصدق وإخلاص، موقنين أنهم أصحاب رسالة وأنهم على طريق رسول الله ﷺ، وهم بدورهم يحتاجون دائمًا لإمدادهم بالجديد المبتكر عن طريق حضور الدورات العلمية المستمر، والاطلاع الدائم على كل ما جدّ بالساحة العلمية، على أن يعود للمعلم دوره ومكانته التي أكرمه الله بها، فنعلى من شأنه ونجله ونحترمه.

كلنا طلبة علم ... فمن هو طالب العلم؟

– إنه ذلك الطالب المخلص الذي يطلب العلم مخلصًا لله تعالى لا يطلبه بنية الرياء أو السمعة أو الحصول على الدنيا، إنما شأنه شأن المسلم في كل أعماله، همه في كل حركاته وسكناته رضا الله تعالى بما ينفع نفسه والناس من حوله بهذا العلم.

– أن يطلب مع علمه، العلم الشرعي المفروض عليه، ليتعرف على دينه من خلاله ويعمل بما تعلم منه ليتحقق الغرض والنفع له، يغض طرفه عن المحارم، ويتقي الله في مشيته ونظرته وسكونه وحركته، له ورد يومي من القرآن الكريم، وصحبة مع الذكر والدعاء، يستعين بطاعته لله على طلب العلم.

– هو الغيور على أمته وبلاده، يتعلم ليسد حاجتها ويرفع شأنها يشارك بعلمه في صنع نهضتها وعلو شأنها.

– هو الذي لا يلهيه طلب العلم عن القيام بحق الله تعالى كأداء الصلوات في أوقاتها، وبر الوالدين، والإحسان إلى الفقراء ومساعدة الضعفاء، وسائر أعمال الخير.

– إنه الصبور في تحمل مشاق طلب العلم، المحافظ على أوقاته، المتحين كل لحظة في طلبه إعلاء لشأن أمته..

فالعلم طلبه جهاد للنفس ولشهواتها.. وإلا فلن يستطيع أن ينهل من معينه.

- إنه هو من فرّغ نفسه وجردها من شهواتها في سبيل طلبه للعلم، طموح لا يرضى لنفسه إلا أعلى الرتب والمراتب، يأخذ بأسباب ذلك ويتوكل على الله، شعاره ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:114].. كلما نال درجة منه سارع لغيرها.

- هو الموقر لمعلميه وأساتذته، المطيع لهم والخلوق معهم، فلا يرفع طرفه عليهم، ولا يعلو صوته صوتهم، يعرف فضلهم عليه، ويثني عليهم ويشكرهم.. يخلص لهم الود، ويدعو لهم بظهر الغيب، وكما يقال: من علمني حرفًا أخلصت له ودًا.

- هو صاحب الخلق الحسن الذي يأمر به دينه، متواضع مع زملائه وصحابه لا يبخل عليهم بالعون، ولا يتكبر عليهم ما تفوق، قدوة طيبة لهم، متعاون معهم على طلب العلم وحسن التأدب بآدابه.. قال الله عز وجل ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة:2].

- يحافظ على مدرسته وجامعته.. نظافتها وممتلكاتها.. فهي أمانة لديه، وليست ملكًا له وحده، وهو مسئول عن ذلك أمام الله تعالى يوم القيامة.

- لا يؤجل واجباته ولا يتركها حتى تكثر وتتراكم عليه، ويتقن أداءها لأن الله تعالى يحب منه ذلك.

- لا ينعزل بسبب طلب العلم عن الناس، ولا عن أحداث أمته وإنما يعيش واقعهم ويعاصره، ويوازن بين ما يطلب من العلم وبين العلوم الأخرى ليكون على بينة بما يحدث في عصره .

- عند الامتحان يكرم المرء أو يهان كما يقولون.. فهل هذا مبرر لطالب العلم أن يغش لينجح ؟! إنه إن أكرم بالنجاح بالغش والخداع فلا يخفى ذلك على الله، وقد يُهان يوم القيامة ويفضح أمام الخلائق لأنه غشاش وظالم وسارق.. وديننا

ينهى عن الغش وقد قال النبي ﷺ محذرًا: **"من غشنا فليس منا"**[1].. والواجب عليه بدلاً من الغش أن يجتهد ويذاكر بجدّ، والله لن يضيعه بفضله ورحمته. وكما قيل:

(ومن لا يذق ذل التعلم ساعة تجرع ذل الجهل طول حياته) .

- **وأخيرًا يا طالب العلم** فلست وحدك من تطلب العلم فقد طلبه قبلك كثيرون ويطلبه معك كثيرون وسيطلبه بعدك أيضًا الكثيرون، فلا تغتر بما آتاك الله تعالى من علم، فمهما زاد فهو قليل، كما قال ربنا تبارك وتعالى ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:85] ، واعلم أنك مهما بلغت فيه مبلغا فإن ذلك من فضل الله عليك، وهو القائل سبحانه ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:53]. وما أنت إلا سبب فكن على صلة دائمة بربك العليم يهبك علمًا واشكره يزدك فضلاً، ولا تغتر بعلمك فيسلبه منك.

(1) رواه الترمذي وصححه السيوطي .

9

حَـوْض

كلما حَدا بك الشوق وازداد، وعاودك الحنين وزاد، فتذكّر الموعد.. وإذا ما التقى الأحباب في دنيا السراب فاذكر اللقاء الأبدي السرمديّ في عالم الحقيقة، حيث لا غشّ ولا خداع، ولا تحوّل قدر باع! وهناك يلقى كل حبيب حبيبه.. ويتحقق وعد الله: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزُّخرُف:67].

إن بطل حكايتنا هذه المرة (**الحوض**) لَيذكّرنا بذاك اللقاء المشهود، وإن اشتركت الأسماء في لفظها فشتّان بين اللفظ والحقيقة ولا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى. لذا فإننا عندما نتلفظ بذلك الاسم تطير أفئدتنا فَرَقًا، وتهفو أرواحنا شوقًا، وتسمو عاليًا لتؤمن بعالم الغيب كما آمنتْ بعالم الشهادة.. نتذكّر ذلك النعيم الذي ينعم فيه الحبيب بلقاء حبيبه، وتلك هي الأمنية العظمى، فيعمل الحنين عمله في النفوس، ويسرح الخيال بعيدًا، حيث يتوهم حرارة اللُقيا العالية، ونظرة الشوق الحانية، وفرحة الوصال الغالية، وعندها تتكحل العينان برؤية الحبيب العدنان ﷺ، حقيقةً لا خيالاً، ويرتوي الحبيب من يد حبيبه شربة لا يظمأ بعدها أبدًا، بعد أن نجح في الامتحان وساق من الأدلة والبراهين على حسن سيره وسلوكه، مؤكدًا بذلك تخطيه كل العقبات والمعوقات في طريقه وانتصاره بفضل الله تعالى على عدوه اللدود الذي كان له بالمرصاد!

وحوض نبينا محمد ﷺ حوض عظيم ومورد كريم يُمدّ من شراب الجنة من نهر الكوثر، فقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: "**حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من**

اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منها فلا يظمأ أبدًا " (1) .

ورسولنا ﷺ سيكون على حوضه في انتظار الناجحين الذين درسوا منهجه واتبعوه ليقدم لهم الجائزة، أمّا من غشّ أو كسل، وبدّل أو فشل، فنصيبه الحرمان، ففي الحديث: **"أنا فرطكم على الحوض، من ورد شرب، ومن شرب لم يظمأ أبدًا، وليردنّ عليّ أقوام أعرفهم ويعرفونني، ثم يُحال بيني وبينهم"** فيقول النبي ﷺ: **"إنهم مني، فيقال:إنك لا تدري ما عملوا بعدك، فأقول: سحقًا سحقا لمن بدّل بعدي"**(2) .

أما حوض دنيانا فإنه يوجد في كل بيت تقريبًا خاصة البيوت الحديثة والتي يأخذ الحوض فيها شكلاً جميلاً ويمثل درجة عالية من جودة الصنع، ويلحق به كما نعرف صنبورًا للماء البارد وآخر للساخن وهو بهذا الشكل يشجعنا على النظافة وكثرة استعمال الماء، وغالبا ما نستخدمه في الوضوء، فننصرف من أمام الحوض وقد غفر الله لنا الخطايا التي اكتسبتها أعضاء الوضوء.. قال ﷺ: **"إذا توضأ العبد فتمضمض خرجت الخطايا من فيه، فإذا استنثر خرجت الخطايا من أنفه، فإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من تحت أشفار عينيه، فإذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديه حتى تخرج من تحت أظافر يديه، فإذا مسح برأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من أذنيه، فإذا غسل رجليه خرجت الخطايا من رجليه حتى تخرج من أظافر رجليه، ثم كان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة"**(3) أي زائدة .

وعندما نرى الحوض نتذكر تلك النعمة العظيمة التي جعل الله منها الحياة.. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء:30].. إنها من أجلّ النعم

(1) رواه البخاري .
(2) رواه مسلم .
(3) رواه النسائي .

وأكبرها فبه قوام الحياة للنفوس والأبدان، ومَن فقَد الماء فقد معه هذه الحياة، وقد امتنّ الله علينا بتلك النعمة فقال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة:68:70] . والشكر يكون بالمحافظة عليه وعدم الإسراف في استخدامه أو إراقته بلا فائدة، والإنفاق منه للمحتاج، ولا أدلّ على ذلك من أن الله تعالى وعد بالأجر العظيم لمن يحفر بئر ماء يرتوي منه العطشى ويدبرون شئونهم، فقد قال رسول الله ﷺ: **"من حفر ماء لم تشرب منه كبد حرّى من جنّ ولا إنس ولا سبع ولا طائر إلا آجره الله يوم القيامة"** [1]. ولقد غفر الله لرجل سقى كلبًا وجده يلهث من شدة العطش.

أمرنا الله بالتوسط في الطعام والشراب فقال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:31].. وعلمنا رسولنا ﷺ كيف نشرب فقال: **"لا تشربوا واحدًا كشرب البعير، ولكن اشربوا مثنى وثلاث، وسمّوا إذا شربتم، واحمدوا إذا رفعتم"** [2]. ونهانا أن نشرب في آنية الذهب والفضة فقال: **"إن الذي يأكل أو يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يُجرجر في بطنه نار جهنم"**[3] .

والماء وإن كان يصلنا بسهولة ويسر ونشربه عذبًا فراتًا، و نراه صافيًا نقيًا، إلا أن هذا لا يعني أن نتركه يسيل بسرف دون أن نستفيد منه أو نُفيد، ومن المؤسف أن البعض لا يحسن استخدامه، فقد يترك الصنبور مفتوحًا أوْ لا يحكم إغلاقه، والبعض الآخر يسرف في وضوئه وغسله، وثالث يبعثره على سيارته أو في حديقته بإسراف، وينسى أن هناك من الناس من يموت في سبيل الحصول على قطرة ماء هو في الحقيقة أراقها بغير حق وسيسأل يوم القيامة عنها.

---

(1) رواه البخاري .
(2) رواه الترمذي .
(3) رواه مسلم .

10

دفتر المحاسبة

أفاق من نومه فزعًا وقلبه يدق دقات سريعة متلاحقة، وصدره يعلو ويهبط، جلس على سريره وهو مضطرب النفس ليرى في المرآة أمامه وجهًا شاحبًا تحيط به سحابات كثيفة من الهمّ والقلق والتوتر، نظر تلقائيًا لذلك الوجه فرأى نفسه وهو ينظر إليها مفكرًا في حزن لا قرار له، ونبضات قلبه المتتابعة تصيح فيه.. لقد مضت عجلة الحياة وهي تحدث أصواتًا عالية صاخبة، يدق ناقوسها إيذانًا بقرب الوصول إلى المحطة الأخيرة!

لقد جاوز العقد الخامس من عمره المليء بالأحداث والشجون والأحزان، والتي كانت بالطبع تختلط بغيرها من الأيام السعيدة والمناسبات السارة، وتلك هي الحياة الدنيا لا تصفو لأحد ولا تخلو من كدر.. فلقد ترعرع ونشأ يتيما في رعاية والدته التي ما كلّت ترعاه وتحفظه وتربيه على مكارم الدين القويم، ومرت السنون وإذا هي تصنع منه إنسانًا ناجحًا مرموقًا، مؤكدة بذلك قول الشاعر:

ليس اليتيـــم من انتهى أبواه

من همّ الحياة وخلفاه ذليلا.

إن اليتيـــم هـو الذي تجـد له

أمًا تخلّت أو أبًا مشغـــولا.

تنهد تنهيدة طويلة، وأخذ نفسًا عميقًا وهو يستجمع ذاكرته، ويسترسل تلك الذكريات.. آه.. ما أسرع مرور الأيام، وما أعجب تلك الأقدار التي لو لم يكن المرء موقنًا بضرورة الإيمان بها لذهب فكره بعيدًا، كرّر النظر إلى المرآة فرأى وجه رجل تبدو عليه تجاعيد الأيام وخطوط السنين.. تنهد وهو يسأل نفسه: كم من

العمر قضيته وأفنيته يظهر محفورًا على أرض وجهي أحصاه الله ونسيته أتمنى أن يعود.. وكم من الأيام نقطعها وهي التي تقطعنا.. ماذا أعددت في مشوار الحياة الطويل القصير.. تمنى أن تسير العجلة إلى الوراء ليستدرك ما فات، وليعود شابًا غضًا.. فتيًا قويًا.. وتذكر قول أبي العتاهية حين قال:

بكيتُ على الشباب بدمع عيني

فلم يغن البكاء ولا النحـيب.

فيا أسفًا أسفت على شـــباب

نعاه الشيب والرأس الخضيب.

عريت من الشباب وكنت غصنًا

كما يعرى من الورق القضيب.

فيا ليت الشـــباب يعـود يومًا

فأخبره بما فعل المشـــيب.

تذكر ذلك ففاضت عيناه بالدموع طارت نفسه وحلّقتْ في سماء التوبة، وسَمَتْ إلى علياء المحاسبة، وامتطتْ طائرىْ الخوف والرجاء.. إنها لحظات صادقة يضطرب فيها الفؤاد ليسكن، وتدمع فيها العين لتنجلي غشاوة الغفلة من عليها، وتذلّ فيها النفس لتنال العزّ والقرب.. لحظات يجعل المرء فيها من نفسه على نفسه قاضيًا وشاهدًا ومتهَمًا فيسجد ويقترب!!

مالتْ معه الذكريات ومال معها إلى أيام شبابه الأولى وتذكر أعماله فيها، يميل به جناح الخوف تارة فيجد نفسه شابًا مرت به أيام ضيع فيها من أوقاته الغالية، وأهدر فيها من أنفاسه النفيسة، قضاها لم يعطها حقها من الحفظ والجدية... كم نظرة نظرتها في غير حلّ سترها الله.. كم كلمة تلفظتُ بها في غير مكانها أحصاها الله.. وكم خيرًا أخّرتُ وكم سيئة ارتكبتُ..كم من الوقت ضيعتُ ولهوت.. قد سوّفتُ عملاً وأجّلتُ واجبًا وتكاسلتُ عن طاعة.. تذكّر ذلك كله فشحب

وجهه وانقبضت نفسه فإذا بميزان الرجاء يهتز ويرجح ويهتف به طائره يذكره بتوبة الله عليه.. لئن كنتَ عصيتَ فقد أطعتَ، ولئن كنتَ أجّلتَ خيرًا فلقد أنبْتَ وأسرعتَ، ولئن أسأتَ مرات فلقد أحسنت بعدها.. و﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:114] .. قد كنتَ شابًا قوي البنية مرهف الحس خدومًا للناس.. كم أعنتَ ضعيفًا وساعدتَ من محتاج.. كم أطعمتَ مسكينًا ورحمتَ يتيمًا وسابقتَ إلى الخيرات.. واصل هاتف الرجاء هتافه به وقد هدأت نفسه.. ها أنت تحب الناس، وتحب الخير لكل الناس، وبحب منك لهم، ومن إحساس بهم، قم فانفعهم، وابغِ الإخلاص.

سارت به قافلة الذكريات وتوقفت عند لحظته تلك.. بعد فترة شبابه.. ليجد نفسه يملك وقت فراغ ليس بالقليل، خاصة بعد زواج أولاده، قد يقضي شطرًا كبيرًا منه أمام شاشة التلفاز.. يتنقل بين أروقة محطاته الفضائية من برنامج لآخر.. وبرغم أن معظم ما يراه نافعًا إلا أن نفعه لا يتعدى شخصه هو.. ومع توقف القافلة انتبه وانتفض جسده، وصحَتْ روحه وهو يردد ويقول: لن يكون ذلك بعد اليوم.. لستُ في حاجة لهذا التقاعد.. أين أنا من مواساة المحتاجين والمحرومين.. أين أنا من زيارة المرضى ودعمهم، ومن مؤازرة المصابين والمنكوبين.. لِمَ لا أعطي للمعاقين قوة وإرادة بنور كلمات الله الطيبات.. لِمَ لا أكفل الأرامل والأيتام وأجعل من نفسي لهم أباً وجدّا.. أعلّم من لا يقرأ ولا يكتب وأتلو عليهم آيات الله.. أزرع في قلوب أحفادي غرس الإيمان وأبذر فيها بذور اليقين فتكبر معهم حين يكبرون!

عاد الشباب إلى قلبه فجأة، وكأنّ سِني عمره الكثيرة منحته قوة وعمرًا آخر! أحس أن الشيب ليس بظهور الشعر الأبيض، ولا بالتقاعد عن الوظيفة، لكن الشيب الحقيقي هو شيب القلب! أما صاحب القلب الشابّ فهو شابّ وإن شابَ شعر رأسه! فقرر أن يعيد لقلبه شبابه ويعود شابًّا من جديد..

سَمَتْ روحه وصفَتْ نفسه في آفاق التوبة.. بعد أن فتح دفتر المحاسبة لذاته بصدق وإخلاص.. بعد أن جعل من نفسه على نفسه محاسبًا ورقيبًا.. أحسّ بذله وعبوديته لمن بيده نواصي العباد.. تاقتْ نفسه لعمل ما يرضي مولاه.. شمر عن ساعديه وقام للوضوء وهو يردد.. الحمدلله.. لا زلتُ حيّا.. هيا يا نفس اعملي.. فلا زال في عمرك بقية وأمامك الفرصة فلا تضيعيها.